حذّاق يحسنون آداب الحرب ويستفيدون من منافع السلم . هم الذين وضعوا حروف الهجاء. فاستخدموها لاعمال شتّى واخترعوا فنوناً عديدة وهم ايضاً الذين سبقوا الى خوض البحار وتقدّموا الشعوب في الحروب البحريّة »

جاء في كتاب حديث للعلّامة ڤكتور بيرار دعاهُ « الفينيقيون والاوديسّاة » (V. Bérard: *Les Phéniciens et l'Odyssée*) : انّ جغرافيّة منظومة اوميروس الاوديساة مبنيّة غالباً على المعلومات التي استفادها ذلك الشاعر المفلق من الفينيقيّين » . ثم استشهد لتأييد قوله بالجغرافي سترابون حيث قال : انّ الفينيقيين ارشدوهُ الى معرفة وصف البلدان (οἱ γὰρ Φοίνικες ἐδήλουν τοῦτο) . وكتاب المسيو بيرار مشحون بالتفاصيل والادلّة المثبتة لسيطرة الفينيقيين على البحار (اطلب المشرق ٩ : ٢٣٤)

ولما اراد سنّاحريب ملك اشور ان يجهّز لدولته اسطولاً بحريًّا في الخليج العجميّ لم يجد من يقوم بعملهِ غير الفينيقيين . قال في احدى كتاباتهِ : « قد اقمتُ في نينوى رجالاً من الحثّيين (وكان الحثيون من سكان سوريّة) أسرَهم قوسي فعمّروا لي مراكب كبيرة على مثال بلادهم فجهّزتُها بالمَلّاحين الصوريين والصيدونيين الذين قبضَتهم يدي »

وقد حفظ اهل فينيقية السيادة على البحار حتى في عهد اليونان بعد فتوحات الاسكندر الذي جرى على مثال سنّاحريب في تجهيز المراكب . وقلّما تجد في تواريخ اليونان كاتباً يذكر سفينةً لا يكون ربّانها سوريًّا او فينيقيًّا

٤

السوريون دُعاة الدين

هذا ولاهل الشام فخرٌ آخر غير المفاخر السابقة فانّهم ليس فقط توسّطوا بين الدول القديمة المتمدّنة والامم التي منها اشتقّت الشعوب المستحدثة لكنّهم ايضاً نالوا امتيازاً آخر فدعاهم الله لتربية العالم الادبيّة والدينيّة فصاروا متوسّطين بين الله والانسان ومن هذا

القبيل كانوا هم السابقين لم يأخذوا الامر من سواهم . نعم انَّ التمدّن البابلي والمصري كان بلغ في الصنائع والفنـون مبلغاً عظيماً والفينيقيون استفادوا من ذلك وافادوا غيرهم لكنَّ الفراعنـة وملوك اشور كانوا من حيث الآداب والاخلاق بعيدين عن الكمال لا يعرفون من العدل والرحمة غير اسمها فيستسلمون للجور ويعتبرون انفسهم بمثابة آلهة يتصرَّفون برعاياهم كيف شاؤوا لا يبالون بمـا ينتظرهم لدى الديَّان من المسئوليَّة عن اعمالهم . وان كان من بعدهم قد غلب على الشعوب التالية روح الدماثة واضحى التمدّن الجديـد مبنيًّا على العدل والمحبَّة فالفضل في ذلك الى المستشرعين الصالحين والى الرسـل القديسين والى الانبياء الابرار الذي نشأُوا في سوريَّة فلسطين وبالاخص الى ذاك الذي كان اكبر من المشترعين واشرف من الانبياء المسيح ابن الله

فانَّ لاهوت الخالق وصفاتـهِ العجيبة لم تظهر في مكان من الارض ظهورها في سوريَّة فلسطين فلاح نور التوحيد فيهـا ومنها امتدَّ الى بقيَّة الشعوب فادخلها في طور جديد من الترقّي والفلاح . ولذلك ترى عيون الانسانيَّة متَّجهة منذ الفي سنة الى تلك البلاد مهد الاديان الموحّدة حيث جرت أحداث التوراة الخطيرة وتجلَّى الحقّ سبحانـهُ لعبادهِ فغيَّرت انوارهُ هيئة المجتمع الانسانيّ

فقد اصاب من دعا سوريَّة فلسطين ارضاً مقدَّسة . كيف لا وفيها حدثت اعجب العجائب وبها تنوط ذكرى اشرف الاعمال واعظم الرجال بحيث يصحّ القول عنها انـهُ ليس فيها شبرٌ الَّا وقد صلَّى فيها نبيّ . ولو اعتبرتَ اخبار الانجيل الطاهر وحدها وجدت اربعـة اخماسها قد جرت في الجليل وليست بلاد الجليل الَّا قسماً من سوريَّة متَّصلاً بفينيقية الجنوبيَّة وطالما دخل الجليل في حيّزها وتبعها في حكمها ونظامها . ولو بحثت عن مواطن الرسل الحواريين لوقفت عليها في سواد عكا وصور وكان لهاتين المدينتين مراكز تجاريَّة في كلّ ساحل فلسطين . وكما انَّ العهد القديم في سفر الملوك الرابع (١٧ : ١٩) قد اتَّسع في اعمال ايليَّا النبيّ في تخوم صور كذلك يروى العهد الجديد آثار ابن الله في سواحل فينيقية بين اهلها الكنعانيين . وزد على ذلك انَّ الكنائس المسيحيَّة الاولى قد نشأت في اواسط سوريَّة وشمالها وانَّ اسم النصارى شاع اوَّلاً في انطاكيَّة وقد صارت تلك الكنائس كمثال حذا حذوهُ من اتى بعدها . وعليهِ يستحقُّ السوريُّون هنا ايضاً وبنوع أَحرى ان يُدعَوا سماسرة الآداب ودعاة الدين فتقدَّموا على اليونان والرومـان

الذين مشوا على آثارهم في دعوة العالم الى المسيح (١ . قال مُنتَلَمبرت الخطيب الشهير في كتابهِ عن نساك الغرب (Moines d'Occident, I, 142) « انَّ الدين كما عزَّة السلاح كما فخر الآداب كلّ ذلك قد جرى على سنَّة مقرَّرة راهنة وناموس ثابت فانتقل من الشرق الى الغرب . بدا التمدّن وبدت القوَّة من الشرق على مثـال النور وكما ان النـور لا يزال يزداد بهاء وحسناً على قدر ما يتقرَّب من الغرب كذلك التمدّن والعزّ زادا في الغرب بعد ان ظهرا في الشرق »

فترى ما لسوريَّة من النصيب العظيم في ترقّي الشعوب فانها هي السابقة والفضل كما قيل للمتقدّم فيجوز لكل رجل ان يعتبر سوريَّة كوطنهِ الثاني لانّ منهـا نال حياتهُ الادبيَّة ان لم ينل حياتهُ الزمنيَّة . ولهذا السبب لم تزل اوربَّة توجّه بالحاظها الى البـلاد التي منها اخذت مصدر حياتها العقليَّة والادبيَّة وكان قدماء النصارى اذا صلّوا جعلوا الشرق قبلتهم فيوجّهون بابصارهم الى الاراضي المقدَّسـة والى الجلجلة وقبر المسيح . وكان ضوء السّحر يذكّرهم باسرار دينهم وكانوا يطلبون ان تُدار رؤوسهم الى الشرق في قبورهم لترتاح عظامهم الهامدة بتوجيهها الى منبع ايمانهم . هذا فضـلًا عن الوف الالوف الذين لم يرغبوا في حياتهم الّا شيئاً واحداً زيارة تلك الاماكن المقدَّسـة التي شرَّفها ابن الله بحياتهِ وموتهِ فيتجشَّمون لذلك اعظم الاخطار ويقاسون اصناف الاتعاب بجلّ امانيهم وقصوى بغيتهم . قـال أحد هؤلاء الزوَّار في القرن الخامس عشر ابرهارد اللحياني (Eberhard le Barbu) كنت بلاد ڤرتمبرغ : « انَّ ثلاثة اشيـاء لا يجوز الترغيب فيها ولا الردّ عنها وهي الزواج والحرب وزيارة الاراضي المقدَّسة فانَّها كلها ربَّما ابتدأت ابتداء حسناً فتنتهي على غير المرغوب » وفي قولهِ هذا اشارة الى الصعوبات التي كان يلقاها زوَّار ذلك الزمان . على ان هذه الانصاب والمخاطر لم تقوَ على ضبط جماهير الزوَّار الذين لم يزالوا منذ عهـد قسطنطين الكبير يتواردون بلا انقطاع الى الاراضي

---

١) اطلب كتاب هرنك A. Harnack : *Mission und Ausbreitung des Christen-tums* (409-410) وقد اثبت فيهِ اسماء البلدان التي نشأت فيها كنيسة مسيحيَّة منذ القرن الاوّل للنصرانيَّة

المقدَّسة كما تشهد على ذلك اخبار رِحلهم المتعدّدة التي دوَّنها في اسفار شاعت في كلّ جهات المعمور وبين كل طبقات الناس

*

وقبل ختامنا لهذا الفصل الذي كتبناهُ في موقع سوريَّة وجعلناهُ كتوطئة لابحاثنا في جغرافيَّة الشام ينبغي لنا ان نضيف اليهِ بعض ملحوظات عموميَّة

من خواصّ الشام كما سبق القول ان لها حدودًا ظاهرة وتخومًا مقرَّرة . وفي ذلك فائدة كبيرة لأنَّ تخوم البلاد بمثابة حدود الاملاك وحواجزها التي تصونها من كلّ تعدٍّ ومخاصمة . وفي الواقع ترى جهات الشام مفروزة عمَّا سواها فلا تستطيع ان تختلط بينها وبين البلاد المجاورة لها كآسية الصغرى مثلًا لانَّ بين الشام والاناضول طودًا شاهقًا يفوق بارتفاعهِ جبال البيراناي الذي يفصل فرنسة عن اسبانية وهو اعظم مهابةً منهُ . كذلك من جهة الشمال الشرقيّ نهرٌ وهو الفرات معدَّل عرضهِ ٥٠٠ متر يفصل الشام عن بلاد ما بين النهرين . امَّا الفاصل بين الشام ومصر وانحاء العرب فبحرٌ بلا ماء اي البوادي القفرة الواسعة التي يسهل دونها قطعُ البحار وقد بيَّنَّا قبلًا ان البحار صارت اليوم من اسباب الوصال وهيهات ان يصدق ذلك في الصحاري والقفار

وخلاصة الكلام انَّ بلاد الشام مجموعٌ منفردٌ قائمٌ بذاتهِ لا يمتزج بتخومهِ غيرهُ ليست كأنكلترَّة معتزلة عمَّا سواها مفتوحة الثغور لمن يطلبها . لكنَّ هذه العزلة لم تعرّض بلاد الشام للفتور والخَبل كما جرى لبلاد الصين وراء حائطها الكبير بل قاسمت البلاد المتمدّنة في حركتها وناهيك بالحركة بركةً وخصبًا وترقّيًا . وقد اثبتنا في مـا سبق انَّ الشام رأت من تقلُّبات الدول وفتوحاتها ما قلَّ لبلد آخر ان يختبر مثلهُ . فانَّ الامم القديمة تجاوزت تلك التخوم وخرقت تلك الحواجز وعدَّت الشـام كطعمة تتنازعها مطامع « ذُباب مصر ونَحل اشور » كما قال اشعيا النبيّ (٧ : ١٨) . وكانت هذه الامم تعتبر فتح الشام وفلسطين كاعظم فوز تفوز بهِ لأنَّها كانت تجد في هذه البلاد معبرًا اكيدًا لتصريف تجارة الهند في موانئ بحر الشام وبابًا واسعًا لفتح افريقية وآسية المتقدّمة . وهذا الحكم قد خطر منذ نحو ٥٠٠٠ سنة على بال سرغون احد ملوك بابل فأثبتهُ في بعض مآثرهِ

وقد سبق لنا القول في سبب انتقال الحركة التجاريَّة العموميَّة في عهدنا . فعلَّة ذلك انَّ القطب الذي عليهِ كان مدار الحركة التجاريَّة لم يَعُد في مكانهِ مارًّا في وسط بلاد الشام بل تحوَّل عن ممرّهِ فصار يمتدُّ في طريقين أُخريين اما في شرقي الشام واماً في غربيها . وليس هذا الخلل الوحيد الذي تدلّنا عليهِ القوانين الجغرافيَّة فانّنا نرى خللًا آخر يضعِف هذه البلاد تشير اليهِ الجغرافيَّة ايضاً

*

تشبه سوريَّة في هيئتها الطبيعيَّة مربَّعًا كبيرًا يقيس طولهُ ثماني مرَّات عرضَهُ لأنَّ طولهُ من جبل طورس الى جبل سينا لا يقلّ عن ١١٠٠ كيلومتر بخلاف عرضهِ الذي لا يتجاوز معدَّلهُ ١٥٠ كيلومترًا . وكلّ يعلم انَّ مثل هذا التباين في الاقيسة يضرُّ بالموازنة ويمنع الارتباط والوحدة بين جهات البلاد . لأنَّ الجسم السياسيّ اذا امتدَّت اطرافهُ فبعُدت عن مركز الحكم خفَّ فعلهُ فيها . ومن ثمّ ترى الانحاء تطلب التفرُّد فتضعف القوَّة العموميَّة . وهذا ممَّا يظهر اليوم فى بعض البلاد رغمًا عن الروابط العظيمة التي تستعين بها الدول في عهدنا لضمّ اطرافها وتوحيد عناصرها كاحتكار القوَّة وتعميم التعليم والجنديَّة الالزاميَّة وغير ذلك ممَّا تفرَّدت بهِ الدول الحاليَّة . مثال ذلك ما تجدهُ في ايطالية فانَّ الحكومة الواحدة تحكم على بلاد مختلفة طبائع واغراضًا كبلاد بيامنتي في الشمال وبلاد صقلّية في الجنوب وحتَّى الآن لم تقوَ الحكومة على مزج هذه العناصر المتباينة وتوحيدها

ويضاف الى هذا الخلَل في تركيب سوريَّة الجغرافيَّة خلل آخر ليس باقلّ ضررًا منهُ بوحدة ادارتها زيد سلاسل جبالها التي تخترق البلاد فتمنع اختلاط طوائفها وتوحيد عناصرها . كما ترى في سويسرة وجهات الاناضول حيث ارتفعت ايضاً الجبال الشاهقة فاضرَّت بامتزاج اقسامها . والتاريخ يعلمنا انَّ الدول الكبرى كانت تجعل مراكزها في السهول . اما سهول سوريَّة فتراها بعيدة عن مركز حركتها معتزلةً في طرفها الشماليّ الشرقيّ وتلك الجهة اشبه ببادية مقفرة وهي منزوية معتزلة فلا تستطيع ان تنشأ فيها مدينة عامرة تحيي الاطراف بنفوذها

وما هو اخطر من ذلك انَّ هذه الجبال السوريَّة التى يبلغ معدَّل علوّها ٢٠٠٠